

العلماء مفاتيح العلوم

العلماء من نعم الله على الأمة، فهم مصابيح الدجى وأئمة الهدى، بهم تشرق الأرض من ظلماتها وتمحق الضلالات من العقول، وتزال الشبهات من الأفكار والانحرافات من السلوك وبهم تنقشع غيوم الشك من النفوس، فهم ركيزة الإيمان وقوام الأمة والرقى وأركان النهوض مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدي بهم في ظلمات الحياة.

د. عبد المجيد بيرم

أستاذ محاضر بكلية العلوم الإسلامية

جامعة الجزائر

الحلقة الأولى

المعرض ويقلع العاصي فهم قادة الأمة وأئمة الخير.

أورد الخطيب البغدادي في كتابه الفقيه والمتفقه، قول ابن مسعود رضي الله عنه: الفقهاء قادة ومجالسهم زيادة².

فهم يعلمون العلم وينشرونه في مجالسهم ويوضحون غامضه ويزيلون الشبهات التي تثار ويحذرون من اتباع الشهوات ويبينون الحلال والحرام.

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ

جاء في مسند أحمد قوله صلى الله عليه وسلم: "إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا طمست النجوم أوشك أن تضل الهداة"¹، فهم ورثة الأنبياء إذ ورثوا منهم علوم الوحي وهم الذين يخلفونهم في تبليغ الرسالة وتعليم الناس ونشر الهداية.

فهم شمس تضيئ وسرج تنير أينما حلوا بهم يهتدي الضال ويسترشد التائه ويتعلم الجاهل ويستفيق الغافل، ويرجع

رشد الجد - رحمه الله تعالى - في كتابه المقدمات: "وكما يجب على المتعلم التعلم فكذا يجب على العالم التعليم."

قال الله عز وجل: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ [آل عمران: 79].

ويقراً: تعلمون، وتعلمون، بمعنى تتعلمون فتجمع القراءات الثلاث، العلم والتعلم والتعليم.⁵

فقراءة "تعلمون" به قرأ أكثر القراء أي تدرسون وبعضهم قرأها تَعْلَمُونَ من العلم وهي قراءة سبعية، وقرأ مجاهد: "تَعْلَمُونَ" بفتح التاء وتشديد اللام أي تتعلمون⁶، فإقبال الناس على العلماء وحضور مجالسهم والتفافهم حولهم علامة صحة في إدراك الخير والفضائل، والأخذ بأسباب النهوض والرفق والكمال.

وأما انفضاض الناس من حولهم والزهد فيهم والرغبة عن مجالسهم علامة على مرض الأمة وتخلفها، وهو عامل من عوامل انتشار الجهل وتفشي الأمية وذهاب حرمة الدين، وانقلاب الموازين والقيم في المجتمع، فحينئذ لا يبقى للعلم مكانة ولا لأهل العلم على اختلاف فنون المعرفة منزلة ويصبح ميزان التفاضل والتبجيل لمن يملك مالا ولو كان جاهلاً.

وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾. [الآية: 18].

قال الإمام الغزالي عن هذه الآية: "فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه، وثنى بالملائكة وثلاث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً، وجلاء ونبلًا"³.

وقال عز وجل في بيان منزلة أهل العلم أيضاً: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ [المجادلة: 11] وفي آية أخرى نفى التساوي بين العالم والجاهل. فقال: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعملون﴾. [الزمر: 10].

فقد حمل الله تعالى العلماء مسؤولية البيان والتعليم والإرشاد، كما حذرهم من كتمان العلم وأحكام الدين، قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَيْنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 158-159].

إن في هذه الآية تهديداً شديداً ووعيداً مخيفاً للذين يكتُمون العلم، وفي الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: "من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار" قال ابن

جاء في الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا"⁸

طرق تحصيل العلم

فليغتنم الناس حياة العلماء وليسعدوا بحضور مجالسهم وسماع توجيهاتهم، وأخذ العلم عنهم، فليس من الدين من لم يوقر الصغير ويجل الكبير ويعرف للعالم مكانته ومنزلته، لأن بهم تهتدي الأمة وترثد وعن طريقهم تتلقى العلوم والمعارف لأنه لا سبيل إلى التعلم والتفقه إلا بأحد الطريقين.

الأول: المشافهة والتلقي المباشر عن أهل العلم، وهي أنفع طرق العلم الموصلة إلى الغاية وأسلمها، إذ يأمن فيها المرء العثار ويسلم من المخاطر، لأن العلوم ومنها علوم الشريعة يحتاج في تحصيلها إلى علمائها فلا بد من مرشد يأخذ بأيدي طالب العلم يوجهه ويرشده، وأما من سبح في بحر العلوم وحده، ولم يكن حاذقاً في السباحة، فيخشى عليه أن تتقاذفه الأمواج، ويأخذه التيار إلى غير ما يريد، وهكذا الشريعة بغير معلم لا تسلم من

الحاجة إلى العلم

إن العلم إنما يحصل لذاته، إذ لم يكن الجهل يوماً من الأيام عند العقلاء محمداً أو مفخرة، وأي جرم أعظم من أن نسوي بين من يعلم وبين من لا يعلم قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 10]

ومما لا ريب فيه أن النهوض والرقى والتقدم إنما يتحقق بتحصيل العلم واستثماره، وهذا ما أكدته الإسلام وحث عليه، وأما الجهل فهو في حكم العدم، وقديماً أوصى يحيى بن عدي الحكيم تلميذه إسحاق بن زرعة أن يكتب هذين البيتين على قبره: وهما

رب ميت قد صار بالعلم حياً

ومبقى قد مات جهلاً وعياً

فاقتنوا العلم كي تنالوا خلوداً

لا تعدوا الحياة في الجهل شيئاً⁷

لذلك كانت منزلة أهل العلم تلي منزلة أصحاب الرسالات عليهم السلام، لأنهم ورثتهم وخلفاؤهم من بعدهم، لذلك كان من أكبر المصائب وأعظم الفواجع موت العلماء إذا لم يتركوا من يخلفهم، فيموت العالم ينطفئ مصباح الهدى وينهدم ركن الإرشاد ويتلطم في الإسلام ثلثة لا يسدها إلا عالم مثله

المخاطر ولا تخلو من ثغرات وآفات، وقد حدث فعلا بعض هذه المخاطر في القديم والحديث.

قال الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالى- في كتابه "الفقيه والمتفقه": "ولا بدّ للمتفقه من أستاذ يدرس عليه ويرجع في تفسير ما أشكل عليه ويتعرف منه طرق الاجتهاد ويفرق به بين الصحة والفساد"⁹.

ولأهمية هذا الأمر خصّ الإمام الشاطبي في كتابه الموافقات مقدمة للحديث عن هذا الموضوع وبيان أهميته وخطورته في أن واحد قال¹⁰: "من أنفع طرق العلم الموصلة إلى الغاية التحقق به أخذه عن أهله المتحققين به على الكمال والتمام" ثم تسأل في إمكانية حصول العلم من غير تعلم فأجاب: "فالإمكان مسلم، ولكن الواقع في مجاري العادات أن لا بدّ من المعلم، وهو متفق عليه في الجملة وإن اختلفوا في بعض التفاصيل" وعلل ذلك قوله "وجريان العادة به كاف في أنه لا بدّ منه، وقد قالوا: إن العلم كان في صدور الرجال ثم انتقل إلى الكتب، وصارت مفاتحه بأيدي الرجال"، وهذا الكلام يقضي بأن لا بدّ في تحصيله من الرجال، وأصل هذا في الصحيح: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلماء" الحديث،

فإذا كان كذلك فالرجال هم مفاتحه بلا شك"¹¹..

فلا بدّ في العلم من معلم، ولا بدّ في المعلم أن يكون متحققا بالعلم،

واعتبر الإمام الشاطبي أخذ العلم عن أهله والتلقي المباشر عن العالم أو الأستاذ أو الشيخ أو المعلم، أنفع طريقة وأسلم لوجهين:

أحدهما: لكون هذه الطريقة فيها خاصية جعلها الله تعالى بين المعلم والمتعلم أو بين الشيخ والتلميذ، أو بين الملقى والمتلقي، قال: "يشهدها كلّ من زاول العلم والعلماء، فكم من مسألة يقرأها المتعلم في كتاب ويحفظها ويرددها على قلبه فلا يفهمها بخلاف لو قرأها بمفرده فإذا ألقى إليه المعلم فهمها بغتة، وحصل له العلم بالحضرة"¹²، وقد يفهمها فهما قاصرا أو مختلا أيضا.

وقديما قيل:

وكم من عائب قولا صحيحا

وآفاته من الفهم السقيم

فالتلقي المباشر عن العلماء وحضور مجالسهم يؤمّن العثار ويحصل الفوائد، ففي حديث حنظلة عند مسلم قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت؟ يا حنظلة! قال: قلت: نافق حنظلة، قال سبحان

فيه عمر باجتهاداته الوحي، وهذا كله كان بفضل حرصه على مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول: كنت أنا وجار لي في بني أمية بن زيد - وهي من عوالي المدينة - وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينزل يوما وأنزل يوما، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك¹⁴.

فقد كان رضي الله عنه حريصا أشد الحرص أن لا يفوته شيء من مجالس النبي صلى الله عليه وسلم فلا يتغيب عن مجلسه إلا مضطرا.

وحضور مجالس العلماء لم يكن مقصورا في العهد الإسلامي الزاهر على الرجال فقط، بل كان يشمل النساء أيضا فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم للنساء مجلسا خاصا بهن يعلمهن ويعظهن، روى أحمد في مسنده أنه جاءه صلى الله عليه وسلم نسوة فقلن: "يا رسول الله ما نقدر عليك في مجلسك من الرجال، فواعدنا منك يوما نأتيك فيه قال موعداكم بيت فلان"¹⁵.

بالإضافة إلى ما فيه من الفوائد في مجالسة العلماء من الاقتداء بهم في سيرتهم وأخلاقهم وسمتهم، فهذا الإمام مالك - رحمه الله - كان شديد الحرص في تمثيل هدي النبي صلى الله عليه

الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين [أي يراها رأي العين] فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضييعات [أي انشغلنا بمطالب المعاش وضروريات الحياة] فنسينا كثيرا، قال أبو بكر: فوالله لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضييعات نسينا كثيرا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي". وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة" ثلاث مرات¹³.

ومن فوائد مجالسة العلماء وتلقي العلم عنهم أنه يفتح للمتعلم بين أيديهم ما لا يفتح له دونهم وقد قال عمر: "وافقت ربي في ثلاث:"

وقد خصّ العلماء مؤلفا بموافقات عمر رضي الله عنه وذكروا ما وافق

في صدور الرجال، فلا بد لطالب العلم معلم يفتح عليه ويترك له¹⁷.

وهذا المعنى ذكره قبلهما الشيخ ابن أبي زيد القيرواني الذي كان يلقب بـ"مالك الصغير" يقول في مقدمة كتابه القيم: النادر والزيادات: قال رحمه الله تعالى: "إن كانت الكتب في آخر الزمان خزائن العلوم فإن مفاتيح مغالقتها الصدور، وقد كان العلم في الصدر الأول خزائنه الصدور، ولم تكن كتب، وصار في آخر الزمان أكثره في الكتب وأقله في الصدور"¹⁸.

الشرط الثاني: أن يتحرى كتب المتقدمين من أهل العلم فإنهم أقعد من غيرهم من المتأخرين، ودعم رأيه من الخبر والتجربة ثم قال: فلذلك صارت كتب المتقدمين وكلامهم وسيرهم أنفع لمن أراد الأخذ بالاحتياط في العلم على أي نوع كان وخصوصاً علم الشريعة الذي هو العروة الوثقى والوزر الأحمى¹⁹.

يتبع...

وسلم في مجالسه وسيرته مما ترك أثراً طيباً في تلاميذه.

الطريق الثاني: في أخذ العلم مطالعة كتب المصنفين ومدوني الدواوين.

قال الشاطبي عن فضل هذه الطريقة في تحصيل العلم: "وهو أيضاً نافع في بابه بشرطين:

الأول: أن يحصل له فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب ومعرفة اصطلاحات أهله وما يتم له به النظر في الكتب، وذلك يحصل بالطريق الأول من مشافهة العلماء، أو هما هو راجع إليه وهو معنى قول من قال: كان العلم في صدور الرجال ثم انتقل إلى الكتب، ومفاتيحه بأيدي الرجال، والكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئاً دون فتح العلماء"¹⁶.

وهذا المعنى أكدّه ابن رشد الجد في كتابه المقدمات قال: وكان العلم في الصدر الأول والثاني في صدور الرجال ثم انتقل إلى جلود الضأن (أي الكتب والمصنفات) وصارت مفاتيحه



هوامش

- 10- الموافقات: 91/1، تعليق الشيخ عبد الله دراز، طبع دار المعرفة.
- 11- المرجع السابق: 92/1.
- 12- الموافقات: 96/1، بتصرف.
- 13- صحيح مسلم بشرح النووي رقم الحديث: 2750 طبع بيت الدولية للأفكار.
- 14- صحيح البخاري بشرح ابن حجر: 89/1.
- 15- مسند الإمام أحمد: 246/2، وأصله في الصحيح.
- 16- الفقيه والمتفقه: 97/1.
- 17- المقدمات الممهدة: ابن رشد الجدي: 49/1.
- 18- 8/1، طبع دار الغرب الإسلامي.
- 19- الموافقات: 99/1.

- 1- مسند الإمام أحمد: 157/3.
- 2- الفقيه والمتفقه: 36/1.
- 3- إحياء علوم الدين: 4/1.
- 4- رواه أبو داود الترمذي وابن ماجه وابن حبان
- 5- المقدمات: 43/1.
- 6- انظر: جامع الأحكام للإمام القرطبي عند تفسير الآية 79 من سورة آل عمران.
- 7- مختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر: الهامش: ص58.
- 8- صحيح البخاري: كتاب العلم، باب: كيف يقبض العلم: 194/1.
- 9- 83/2.